حلم بلد غريب

بقلم : جراهام جرين
ترجمة : ابراهيم سوريال

كان بيت الهر بروفيسور محجوبا من جميع الجهات بستار من أشجار الصنوبر المزروعة وسط صخور رمادية ضخمة . وكانت المسافة بين البيت والعاصمة لا تزيد على عشرين دقيقة بالسيارة على طريق ضخم تتركه السيارة لتنعطف نحو الشمال بضع دقائق أخرى ، ورغم ذلك فانك تحس أنك موجود فى أعمق أعماق الريف ، اذ يخيل اليك أنك خلفت وراءك المقاهى والاوبرا والمسارح على مبعدة مئات من الكيلومترات .

وقد ترك الهر بروفيسور الخدمة منذ سنتين عندما بلغ الخامسة والستين ، فقد انتهى عندئذ عمله فى المستشفى وأغلق عيادته فى المدينة ، وعمله الآن قاصر على بعض المرضى المحظوظين الذين لابد لهم — لكى يصلوا اليه من أن يمتلكوا سيارة ، اما اذا كانوا من الفقراء (فهو لم يحتفظ بعملاء أغنياء قليلين فقط) فانهم يأخذون الحافلة ثم يتركونها ليقطعوا باقى الطريق سيرا على الأقدام ، فيبلغوا الأشجار والصخور بعد عشر دقائق .

فى ذلك اليوم كان هناك واحد من هؤلاء العملاء الفقراء فى عيادة الطبيب منتظرا معرفة مصيره . وكان أمام غرفة الانتظار حاجز هو عبارة عن باب يتداخل مصراعاه بعضهما فى بعض ويفتح على صالة كبيرة لم يكن المريض قد دخلها من قبل . وكانت هناك مكتبة من الخشب الثقيل الداكن مملوءة بمجلدات داكنة ثقيلة أيضا ، يبدو أنها جميعا تتناول الطب (اذ لم يحدث أن أحدا رأى الهر بروفيسور يهتم بمؤلفات أقل دسامة ، أو أن أحدا سمعه يبدى رأيا ، حتى لو كان الرأى المطلوب يتناول أكثر الكتاب الكلاسيك احتراما . ولقد سئل يوما عن تسمم مدام بوفارى فأكد أنه لم يسمع اطلاقا عن كتاب مدام بوفارى هذا ، كما أبدى مرة أخرى نفس الجهل فيما يتعلق بعلاج مرض الزهرى فى أشباح ابسن) . وقد كان مكتب هذا الطبيب داكنا ثقيلا مثل مكتبته ، والواقع أن مكتبا كمكتبه كان هو وحده الذى يستطيع — دون أن يتحطم — تحمل ذلك التمثال المصنوع من البرونز

المصبوب والذى يزيد ارتفاعه على قدم، والذى يستخدمه البروفيسور لتثبيت الأوراق . والتمثال لبروميثيوس مقيدا الى صخرته بينما انفرس فى كبده منقار نسر منشور الجناحين (وكان يحدث أحيانا أن يشير الطبيب الى التمثال فى مزاح بارد ، اذا ما أعلن لأحد العملاء اضطرابا ما فى الكبد) .

كان المريض يلبس بذلة من الصوف قديمة جدا وان كانت لا تزال تحتفظ بمسحة من أصل عريق ، وكانت أطراف أكمامها مستصلحة ـ أما حذاؤه السميك ذو الرقبة فقد خدمه مدة طويلة ، وكان المريض قد علق فى الممر معطفا ومظلة مطر ، وكان هناك تحت المظلة زوج من الأحذية التى تلبس فوق الحذاء العادى للسير فوق الجليد وكانت آثار الجليد لا تزال عالقة به .

كان عمره فوق الخمسين ، قضى حياته كلها خلف مكتب صغير فى أحد المصارف، وبفضل دأبه وأدبه وصل الى مركز صراف ثان ، وما كان فى استطاعته أن يصبح الصراف الأول ، اذ أن هذا الأخير كان يصغره بخمس سنوات على الأقل .

أما الهر بروفيسور فكان ذا لحية رمادية قصيرة ، يلبس نظارة باطار من الصلب من الطراز القديم ، وعلى يديه المكسوتين بالشعر نوعا ببقع بنية من أثر السنين . واذ كان نادر الابتسام فلم تكن هناك فرص كثيرة لرؤية أسنانه القوية السليمة . وبينما هو يداعب برونز بروميثيوس قال بصوت ثابت :

ـ فى زيارتك الاولى قلت لك ان العلاج بدأ متأخرا جدا بحيث لم يعد فى الامكان ايقاف تقدم المرض . وان تحليل الافرازات يثبت أن ...

ـ ولكن ياهر بروفيسور ، انك تعالجنى منذ اشهر عديدة ، ولم يعلم أحد بأى شىء ، ففى وسعى ان أواصل عملى فى المصرف . الا تستطيع ان تطيل علاجك قليلا ؟

فأتى الطبيب بحركة خفيفة من الابهام والسبابة كما لو كان سيتناول قطعة من الطباشير وقال :

ـ سيكون هذا خرقا للقانون ، فالمصابون بأمراض معدية يجب أن يقيموا فى المستشفيات .

ـ ولكنك أخبرتنى بنفسك يا هر بروفيسور أن هذا المرض واحد من أصعب الأمراض انتقالا بالعدوى .

ـ ورغم هذا فها أنت قد أصبت به .

فتساءل المريض كيف ؟ كيف ؟ وكان تساؤله يشى بالضجر المتناهى الذى يصيب انسانا وجه لنفسه سؤالا بعينه مرات لا يحصرها عد .

ـ ربما حدث ذلك عندما كنت تعمل فى المنطقة الساحلية . ففى الموانى تكثر الاتصالات المنوعة .

ـ اتصالات ؟

ـ انى أفترض أنك رجل كالآخرين .

ـ ولكن ذلك كان منذ سبع سنوات .

ـ لقد شاهدت حالات يكمن فيها هذا المرض عشر سنوات قبل أن يظهر .

ـ ولكن ستكون هذه نهاية عملى ياهر بروفيسور ، لن يقبلنى المصرف بعد ذلك مطلقا ، وسيكون معاشى ضئيلا .

ـ انك تبالغ . ان مرض هانسن ممكن شفاؤه تماما بعد فترة معينة .

ـ ولماذا لا تطلق على هذا المرض اسمه الحقيقى ؟

ـ لقد قرر المؤتمر الدولى منذ خمس سنوات تغيير الاسم .

ـ ولكن الناس لم تغيره يا هر بروفيسور ، فاذا أرسلتنى الى المستشفى فسيعرف الناس جميعا أنى أبرص .

ـ ليس لى خيار، ولكن اؤكد لك أنك ستكون هناك على ما يرام ، فهناك على ما أعتقد تليفزيون فى جميع الغرف ، كما أن هناك ملعبا للجولف تحت تصرف المرضى .

لم يبدو على الهربروفيسور أى دليل ع لى الملل الااذا اعتبرنا عدم دعوته المريض للجلوس وبقاءه هو نفسه واقفا منتصب الظهر كجندى حراسة خلف بروميثيوس ونسره ، أقول الا اذا اعتبرنا ذلك دليلا على الملل .

ـ هر بروفيسور ، أقسم لك ، لن أقول كلمة واحدة عن ذلك لأى انسان ، وفى مقدورك أن تعالجنى تماما كما سيفعلون فى المستشفى ، انك تقول بنفسك ان فرص العدوى تكاد تكون معدومة ، ان لدى بعض المدخرات يا هر بروفسيور ، انها ليست مبلغا ضخما ، ولكنى سأعطيها جميعها لك .

ـ يا سيدى العزيز ، يجب أن تكف عن محاولة شرائى ، فان هذه المحاولة ليست مجرد اهانة لى فحسب ، بل انها تصرف يتسم بعدم الادراك من جانبك. آسف اذ يجب أن أطلب منك الانصراف الآن فوقتى مشغول تماما ...

ـ هر بروفيسور ، ليست لديك أية فكرة عن معنى هذا بالنسبة لى . انى أحيا حياة بسيطة ، ولكن عندما يكون الانسان وحيدا فى الدنيا فانه يعطى كل عاطفته لعاداته . انى أذهب الى مقهى على شاطىء البحيرة كل يوم فى الساعة السابعة وأظل هناك حتى الساعة الثامنة. الجميع يعرفوننى فى ذلك المقهى ، وقد أجلس أحيانا مع بعض السيدات ، وفى يوم الأحد آخذ الباخرة الصغيرة التى تسير فى البحيرة و ...

فأجاب الهر بروفيسور فى جفاف :

ـ يجب أن تكف عن عاداتك لمدة سنة أو سنتين .

ـ أكف ؟ هل قلت أكف ؟ ولكنى لن أستطيع استئنافها بعد ذلك مطلقا ، مطلقا ... ان البرص «كلمة» انه ليس « مرضا » لن يصدق الناس مطلقا أن من الممكن شفاء الانسان من البرص ، ليس فى مقدور الانسان أن يشفى من « كلمة » .

ـ سيكون فى حوزتك شهادة موقعة من سلطات المستشفى .

ـ شهادة ؟ ان فى استطاعتى أيضا أن أحمل جرسا صغيرا .

واتجه المريض نحو الباب ثم الممر حيث مظلته وحذاؤه الذى يستعمله للسير فوق الجليد، وجلس الهر بروفيسور الى مكتبه مصدرا آهة ارتياح لم يمتد أثرها خارج الحجرة . ولكن المريض ما لبث أن عاد أدراجه .

ـ ألا تثق فى قدرتى على الكتمان ياهر بروفيسور ؟

ـ انى أعتقد تماما ، وأستطيع أن أؤكد

لك ، أنك ستلزم الصمت ، فهذا فى صالحك أنت · ولكن لا تستطيع أن تتوقع من طبيب فى مثل مركزى الاجتماعى أن يخرق القانون · فهو قانون معقول وضرورى، واذا لم يكن أحدهم قد خالفه فى مكان ما لما كنت أنت هنا اليوم· الى اللقاء يا هرس ··

وقبل أن يتم الطبيب جملته الأخيرة، كان المريض قد أغلق الباب الخارجى وبدأ فى السير بين الأحجار وأشجار الصنوبر متجهانحو الطريق الكبير صوب محطة الاتوبيس والعاصمة ·

واتجه الهر بروفيسور نحو النافذة ليتأكد من رحيله ، فرآه محاطا بذرات الجليد المتطايرة فى رخاوة بين أغصان الشجر ، ثم رآه يطوح يديه كما لو كان يعرض على احدى الصخور فكرةجديدة ثم استأنف السير بخطى ثقيلة ، وبعد قليل اختفى عن نظر الطبيب · فتح الهر بروفيسور أبواب قاعة الطعام واتجه فى خطى ثابتة نحو البوفيه الذى كان هو أيضا مثل المكتبة قطعة أثاث ثقيلة · وبدلا من بروميثيوس كان هناك قنينة كبيرة من الفضة حفر عليها اسم الهر بروفيسور وتاريخ يرجع الى أربعين عاما، لقد كان ذلك تذكارا حصل عليه الطبيب فى لعبة السلاح · وبجانب هذه القنينة حلية للمائدة كبيرة من الفضة تحمل نقشا ،وهى هدية من هيئة المستشفى بمناسبة اعتزال الطبيب العمل· وتناول الهر بروفيسور تفاحةخضراء صلبة وعاد الى حجرة الفحص حيث جلس من جديد الى مكتبه وبدأ فى القضم ملء فمه : كروك ، كروك ، كروك ·

***

فى نفس الصباح ، بعد ذلك بفترة وجيزة ، استقبل الهر بروفيسور زائرا آخر ، وصل الى المنزل فى سيارة مرسيدس بنز ، واستقبله الهر بروفيسور بنفسه عند الباب ثم اصطحبه الى داخل المنزل · واذ قدم للزائر المقعد الوحيد الذى يوفر بعض الراحة دون جميع قطع الأثاث فى مكتبه قال :

ـ يا هر كولونيل أرجو أن تكون زيارتك بدافع الصداقة فقط دون أية علاقة بالعمل · اتخذ الكولونيل مظهرا لاهيا حين أجاب :

ـ انى لا أمرض أبدا ، ان ضغط الدم عندى طبيعى ، ووزنى هو ما يجب أن يكون وقلبى متين . انى أعمل كآلة والواقع أن من الصعب على أن أتصور أن هذه الآلة ممكن أن تبلى مع الزمن · انى لا أحمل هموما وجهازى العصبى فى غاية الاتزان ·

ـ لقد استرحت لمعرفة أن زيارتك للمجاملة يا هر كولونيل ·

عقد الكولونيل ساقيه الطويلتين النحيلتين اللتين غطاهما قماش «التويد» الانجليزى واستطرد :

ـ ان الجيش هو المهنة الصحية أكثر من أية مهنة أخرى ، فى بلد محايد مثل بلدنا طبعا . فالمناورات السنوية تسدى لنا جميلا عظيما اذ تنشط أجهزتنا وتنظف دمنا ·

ـ بودى أن أنصح بها مرضاى ·

ـ نستطيع أن نقبل مرضى فى الجيش ··· ثم أضاف الكولونيل فى ضحكة جافة : اننا نترك ذلك للأمم المتصارعة، فهى لن تصل أبدا الى ما نحن عليه من فاعلية ·

قدم الهر بروفيسور سيجارا للكولونيل ، فأخرج هذا مقص سيجار من غلاف جلدى صغير واستعد للتدخين ثم سأل :

ـ هل قابلت الهر جنرال ؟

ـ مرة أو مرتين .

ـ سيحتفل الليلة ببلوغه السبعين .

ـحقا ؟ انه يبدو أصغر من سنه .

ـ فعلا ، ولقد هيأ له أصدقاؤه ـ وأنا على رأسهم ـ مسرات غير عادية بهذه المناسبة . انك تعرف طبعا تسليته المفضلة ؟

ـ كلا .

ـ لعبةالروليت ، فمنذ خمسين سنة يقضى معظم اجازاته فى مونت كارلو .

ـ لا بد أن جهازه العصبى هو أيضا متين .

ـ بالتأكيد . وحيث أنه لن يستطيع أن يحتفل بعيد ميلاده فى مونت كارلو بسبب عارض طارىء ، فلقد فكر أصدقاؤه فى أن يحضروا اليه المائدة الخضراء .

ـ وكيف يمكنهم ذلك ؟

ـلقد أعد كل شيء بطريقة مرضية. سيصل من مدينة «كان» أحد المختصين فى ادارة اللعب مع مساعدين والادوات اللازمة . وكان أحد أصدقائى سيعيرنا منزله فى الريف ، فأنت تعلم أن كل هذا يجب أن يحدث فى الخفاء تماما بسبب لا معقولية قوانيننا . من الممكن تصور أن البوليس سيغمض عينيه فى مثل هذه المناسبة ، ولكن كبار الموظفين غيورون جدا من الجيش . ولقد سمعت مدير البوليس يعلن مرة فى احتفال دهشت اذ وجدته مدعوا اليه ، سمعته يعلن ان رجاله هم الذين حاربوا فى الحروب الوحيدة التى خاضتها بلادنا .

ـ لم أفهم ماذا تقصد .

ـ أوه ! لقد كان يشير الى الجريمة ... مقارنة خالية من المعنى ، اذ ما هو الشيء المشترك بين الجريمة والحرب ؟

ـ لقد كنتتقول انكم أعددتم كل شيء بطريقة مرضية .

ـ نعم ، مع الهر مدير عام البنك الوطنى . ولكن اليوم ، فجأة ، تحدث الى بالتليفون ليقول ان أحد أطفاله ـ بنت كما يجب أن تتوقع ـ أصيب بالحصبة، وهكذا فكل منزله الآن فى حالة طوارىء صحية .

ـ سيخيب أمل الهر جنرال .

ـ ان الهر جنرال يجهل كل هذا . فهو لا يعلم سوى أننا نعد احتفالا فى الريف تكريما له .

فاجتهد الهربروفيسور فى اخفاء شعوره بالسخرية كان يعتبره عيبا اصابه من مهنته وقال :

ـ اذن فقد أتيتالى لترى ماذاكنت أستطيع أن أوحى اليك بـ ..

ـ بكل بساطة ياهر بروفيسور ، أتيت اليهلاستعير منزلكمن أجلالحفلة هذا المساء. ونستطيع أن نحدد المشكلة فى عبارات بسيطة جدا، ان المنزل الذى يقام فيه الحفليجب أن يكون فى الريف، ولقد شرحت لك السبب . كما يجب أيضا أنيشتمل على صالونفسيح بدرجة

تسمح بوضع الموائد ، وسيكون لدينا منهاثلاث على الاقل اذ سيكون هناك مائة مدعو • وكذلك يجب طبعا أن يكون صاحب المنزل شخصا لا يعترض عليه الهر جنرال • توجد مساكن أكبر كثيرا من مسكنك ، لكن لايمكن أن يفكر انسان فى أن يجعل الجنرال يدخلها كضيف • ولا تستطيع كثيرا في هذه الظروف أن نلجأ الى التوسل •

ـ هذا بالتأكيد يشرفنى جدا ياهر كولونيل ولكن •••

ـ أظن أن هذه الأبواب تنزلق فتعطى اتساعا أكبر كثيرا للصالة ؟

ـ نعم ، ولكن •••

ـ آسف ، ماذا كنت تقول ؟

ـ لقد فهمت أن الاحتفال كان يجب أن يتم هذا المساء •

ـ نعم •

ـ لا أدرى اذن كيف يمكن أن يكون هناك وقت كاف •

ـ هذا أمر يتعلق بسرعة الحركة والنقل • اركن الى الجيش فى هذه الأمور •

ثم أخرج من جيبه مفكرة صغيرة وكتب كلمة «أنوار» وأخذ يوضح معناها للهر بروفيسور :

ـ يجب أن نعلق بعض الثريات • هل أستطيع أن أرى الغرفة الأخرى من فضلك ؟

وأخذ يذرعها بساقيه الطويلتين المغطاتين بقماش التويد •

ـ انها ستكون « قاعة خاصة » جميلة عندما تتداخل الأبواب وتوضع الثريات مكان هذا المصباح الموضوع وسط السقف والذى أرجو أن تسمح لى أن أصفه بأنه عادى تماما • أما مفروشاتك فاننا سننقلها الى أعلى، الى الدور الأول، وسنحضر بالطبع مقاعدنا الخاصة • كما أن هذه المائدة يمكن على أى حال أن تتحول الى بار • يبدو أنك كنت تلعب السلاح قديما يا هر بروفيسور •

ـ نعم •

ـ لقد كان الهر جنرال يحب لعبة السلاح كثيرا • قل لى الآن ، أين تظن أن باستطاعتنا وضع الفرقة الموسيقية؟

ـ الفرقة الموسيقية ؟

ـ ان فرقتى هى التى ستتقدم الموسيقيين • أظن أنهم ـ على أسوأ الفروض ـ يستطيعون أن يجلسوا على السلم •

واتجه الى نافذة غرفة الاستقبال وتفحص أرجاء الحديقة الشتوية التى كانت تحيط بها غابة الصنوبر المظلمة •

ـ هل هذا كشك ، ذلك البناء الذى أراه هناك ؟

ـ انه لكذلك •

ـ ان النوتة الشرقية هى التى تتلاءم مع المناسبة واذا عزف الموسيقيون فى الكشك ، وتركنا احدى النوافذمفتوحة قليلا ، فسوف تصل الينا الالحان فى هدوء •

ـ ان البرد •••

ـ انلديكمدفأة جيدة جدا، والستائر سميكة •

ـ لاتوجد فى الكشك أية تدفئة •

ـ يستطيع الرجال أن يلبسوا معاطفهم الرسمية • وكما تعلم فان العزف نفسه بالنسبة للاعب الكمان •••

ـ هل سيحدث كل ذلك هذا المساء؟

ـ هذا المساء ٠

وابتسم الهر بروفيسور ابتسامة سريعة مفتصبة لاخفاء ما يعانيه من نقص فى الشجاعة وقال :

ـ لم يحدث لى حتى الآن أن خرقت القانون ٠

ـ ولن تجد مناسبة أفضل من هذه لتفعل ذلك ٠

***

بدأت سيارات نقل الأثاث تصل قبل نهاية النهار بوقت طويل ٠ وكان أول ما وصل هو الثريات وأكواب الشراب التى ظلت فى صناديقها وسط مدخل البيت فى انتظار وصول عمال الكهرباء ثم وصل الخدم فى نفس اللحظة التى وصلت فيها عربة نقل تحمل أربعة وسبعين مقعدا صغيرا مذهبا ٠ وذهب الحمالون الى المطبخ حيث شربوا بعضا من الجعة قدمتها لهم مديرة منزل الهر بروفيسور فى انتظار ظهور العربة التى ستحضر موائد الروليت الثلاث ٠ أما العجلات نفسها والجوخ الأخضر وعلب « الفيشات » المصنوعة من البلاستيك ، ذات الألوان والأشكال المنوعة ، فقد أحضرها بعد فترة الموظفون المختصون الثلاثة ، رجال جادون يرتدون بزة سوداء ، فى سيارتهم الخاصة الانيقة ٠ ولم يسبق للهر بروفيسور أن رأى مطلقا كل هذه السيارات تقف أمام منزلة . فأحس أنه غريب ، انه مدعو، وتلكأ أمام نافذة غرفته مشفقا من لحظة نزول السلم ورؤية العمال ٠ لقد كان الممر الطويل الذى ينفتح عليه باب غرفته شبه مسدود بقطع الأثاث التى نقلوها من الدور الارضى ٠

ومع بدء هبوط شمس الشتاء الحمراء خلف أشجار الصنوبر السوداء بعد الظهر ، ازداد عدد السيارات فى الممر الكبير ٠ لقد وصل أولا صف طويل من سيارات الأجرة ، واحدة بعد الأخرى ، ذات لون أصفر فاقع كأنها عقد من العنبر، وخرج منها فى غير نظام عدد كبير من الرجال الضخام مرتدين المعاطف العسكرية ومعهم آلات موسيقية كانت فى معظم الأحيان ترتطم بأبواب السيارات فكان لا بد من اخراجها منها بحرص وبصعوبة، لقد كان عسيرا فى الواقع تصور كيف تسنى ادخال الفيولونسل ٠٠٠ لقد كان الجزء الأعلى من هذه الآلة يخرج أولا كأنه النصف العلوى « لمانيكان » ، وبعد ذلك تظهر الكتفان عريضتين جدا ٠ والتف الموسيقيون فى دائرة مرتدين معاطفهم الطويلة ، وقد صوبوا أقواسهم كأنها بنادق معدة للانطلاق، فى حين أخذ رجل قصير ممسك بمثلث يصيح مصدرا لهم الارشادات ٠ وبعد لحظة كانوا جميعا قد غادروا مكانهم أمام المنزل وانبعثت من كشك الحديقة المبنى على الطراز الشرقى أنغام متنافرة صادرة عن الآلات التى يضبطها الموسيقيون ، وبدأت الانغام تطفو فوق الجليد٠ وفى الممر سمع صوت شىء ينكسر، واذ نظر الهر بروفيسور الى الخارج ، رأى أن ذلك كان أحد مصابيح السقف الذى لم يعجب الهر كولونيل ، وقد وقع من فوق مائدة صغيرة حيث لم يكن موضوعا فى اتزان تام ٠ أما المكتب الثقيل والمكتبة ذات الألواح الزجاجية والدواليب الثلاثة الخاصة بفرقة الفحص فقد كانت عندئذ تكاد تسد الممر تماما، وتناول الهر بروفيسور تمثال بروميثيوس البرنزى ووضعه فى أمان داخل غرفته رغم أنه كان أقل ما فى

المنزل قابلية للكسر . ومن أسفل كانت تتصاعد ضوضاء المطارق وصوت الهر كولونيل مصدرا أوامره . ورجع الهر بروفيسور الى غرفته حيث جلس على سريره وأخذ يقرأ « شوبنهور » لفترة وجيزة ، بغية تهدئة أعصابه .

***

وبعد ما يقرب من ثلاثة أرباع الساعة ذهب الهر كولونيل الى الهر بروفيسور فى غرفته ، ودخل الى الغرفة بخطوة نشطة ، مرتديا رداءه الرسمى الطويل الخاص بالسهرة لذلك ظهرت ساقاه أكثر طولا وأكثر نحافة مما كانتا تبدوان من قبل .

ـ ان ساعة الصفر تقترب ونحن مستعدون تقريبا . لن تستطيع أن تتعرف على منزلك يا هر بروفيسور ، فقد تغير كلية، سوف يحس الهر جنرال بنفسه فى جو أكثر بهجة وتحررا ، وسوف يقدم الموسيقيون منوعات من شتراوس و أوفنباخ معبعض أنغام ليهار التى يسهل على الهر جنرال تمييزها عن غيرها. ولقد راعيت أن نعلق على الجدران بعض اللوحات المناسبة . وعندما تنزل وترى القاعة الخاصة ، ستتبين أننا لم نكن مشغولين بمجرد تمرين عسكرى عادى ، فان الاهتمام بالتفاصيل هو علامة الجندى الممتاز ـ ان منزلك هذا المساء ، يا هر بروفيسور ، هو كازينو على شاطىء البحر الأبيض ، ولقد فكرت فى اخفاء أشجار الصنوبر بطريقة أو أخرى ، ولكن لم أجد وسيلة لمحو الجليد الذى يتساقط باستمرار .

ـ مدهش ، مدهش فعلا .

واذا قال الهر بروفيسور ذلك، تناهى الى سمعه نغم من « هيلين الجميلة » آتيا من الكشك البعيد ، ولم تكن السيارات تكف عن التوقف فى الشارع الكبير ، فشعر أنه بعيد عن منزله كما لو كان يسكن بلدا مجهولا .

ـ أود أن تسمح لى بأن أسلمك كل شىء هذا المساء ، فانى بالكاد أعرف الهر جنرال ، ولهذا فسوف أتعشى فى هدوء بشطيرة أتناولها فى غرفتى .

ـ هذا مستحيل قطعا ، انك المضيف، والهر جنرال يعرف الآن اسمك ولو أنه لا يتوقع طبعا هذا المنظر المعد لاستقباله ... آه ، هاقد بدأ المدعوون فى الوصول لقد طلبت منهم المجىء مبكرين بحيث أنه فى لحظة دخول الهر جنرال يكون كل شىء على أكمل وضع ، فالعجلات عندئذ تدور ، والرهان مدفوع ، والموظفون المشرفون يصدرون نداءاتهم ... ، وينبسط ميدان المعركة أمام الهر جنرال تعال يا هر بروفيسور ، هيا بنا نبعث بعض النشاط حول الموائد .... لقد حان وقت نزولنا معا لافتتاح الحفل .

كان السير فى الشارع غير مأمون تماما فوق تلك الطبقة الرقيقة من الجليد المتساقطة حديثا ، وكان الاوتوبيس القادم من العاصمة يسير بسرعة لا تفوق سرعة عداء يقوم بالتدريب ويخشى أن تضار احدى عضلاته قبل المنافسة العظمى . وكانت قدما الرجل المريض مثلجتين رغم أحذية الجليد ، وربما كان يحس البرد نتيجة التفكير فى المحاولة عديمة الجدوى التى كان على وشك أن يقوم بها . لقد كانت حركة المرور فى الطريق هائلة ذلك المساء : سيارات أجرة صفراء غالبا ما تسبق الأوتوبيس، وسيارات صغيرة « سبور » مليئة

بشبان لابسين زيا متماثلا أو ملابس السهرة ، ضاحكين مغنين ، وسمع تحذيرا صادرا فى كبرياء غير عادية منبعثا من صفارة قوية ربما كانت فى سيارة بوليس أو اسعاف ، فارغم هذا التحذير الاوتوبيس على أن ينتحى جانبا فى ثقل ثم على أن يقف محتكابكتل الجليد الزرقاء ليفسح الطريق بسيارة مرسيدس ضخمة ، وتبين المريض داخل السيارة رجلا جالسا منتصب الظهر ، رجلا عجوزا كان تاريخ شاربه الرمادى الطويل يرجع الى حياد ١٩١٤ وكان يلبس زيا رسميا قديم الطراز ويضع على رأسه قلنسوة من الفراء تغطى اذنيه .

نزل الرجل المريض بسرعة على جانب الطريق ، لقد كان البدر مكتملا تقريبا، ولكن لكى يتبين طريقه فى الغابة ، كان لا بد له من الاستعانة بمصباح الجيب الذى يحمله معه دائما ، اذ لم تعد أنوار السيارات كافية لارشاده فى الطريق الخاص المؤدى الى بيت الهر بروفيسور وبينما كان يسير محاذيا لخط الجليد على جانب الطريق ، أخذ يتمرن على تظلمه الأخير الذى سوف يتقدم به، فاذا فشل هذا التظلم ، فلم يكون أمامه سوى الذهاب الى المستشفى ، الا اذا وجد من الشجاعة ما يسمح له بالدخول فى ماء البحيرة المثلج وعدم الخروج من هناك . لم يكن لديه سوى قليل من الأمل ، وعندما حاول تخيل الهر بروفيسور جالسا أمام مكتبه ، غاضبا متحملا بصعوبة هذه الزيارة المفاجئة المتأخرة عندما حاول تخيل ذلك لم يفهم السبب فى أنه لم يستطع أن يتخيل سوى أجنحة النسر نصف المنشورة ومنقاره الغائر فى امعاء السجين متعلقا بها .

وبدأ يترافع فى صوت خفيض تحت الأشجار : « ليس فى هذا خطر على أى شخص يا هر بروفيسور . لقد قضيت حياتى كلها وحيدا . ليس لى عائلة ـ لقد ماتت أختى الوحيدة فى العام الماضى ـ انى لا أرى أحدا ولا أتحدث الى أحد خلاف عملاء المصرف . كل ما هناك جلسة مع بعض السيدات من وقت لآخر . أستطيع أن أزيد من عزلتى أكثر اذا حكمت بأن هذا لازم يا هر بروفيسور . وفيما يتعلق بالمصرف ، فانى معتاد باستمرار على لبس قفازات لتقليب الأوراق المالية ، فمعظمها قذر جدا . سألتزم بكل الاحتياطات التى تشير بها على اذا وافقت على أن تستمر فى معالجتى سرا يا هر بروفيسور . انى رجل يحترم القوانين ، ولكن الروح أكثر أهمية من الحرف ، أليس هذا صحيحا ؟ سوف احترم الروح فى اخلاص .

***

كان منقار النسر الذى لا يرحم قابضا بقوة على بروميثيوس، واستطرد المريض فى حزن، كما لو أنه يريد أن يمنع تكرار عبارة لن يطيق سماعها مرة ثانية : «انى لا أحب التليفزيون يا هر بروفيسور ، انه يجعل عينى تدمعان ، كما أنى لم ألعب الجولف اطلاقا .

وتوقف تحت الأشجار ، وناء غصن بثقل كتلة من الجليد فسقطت على مظلته محدثة صوتا « فلوك » . وخيل اليه ، وان كان هذا شيئا قليل الاحتمال لدرجة كبيرة ، انه سمع موجات موسيقى بعيدة حملتها اليه الريح ثم أبعدتها عنه فورا .

بل لقد خيل اليه أنه تبين فيما سمع أغنية مأخوذة من « الحياة الباريسية » ، احدى أنغام «الفايس» تريد لحظة قصيرة فى هذا المكان الذى يلفه الجليد والليل من جميع جوانبه · ولم يكن قد رأى هذا المكان الا فى وضح النهار، والآن يتساقط الجليد ماسا وجهه وتلتمع النجوم فوقه بين أشجار الصنوبر ، فظن أنه أخطأ الممر السليم واقتحم منطقة مجهولة يدور فيها حفل راقص ·

ولكن عندما بلغ منحنى الممر أمام المنزل تبين المدخل وشكل النوافذ والانحدار الحاد الذى يتميز به السقف الذى كان الجليد بين لحظة وأخرى ينزلق منه ويسقط محدثا صوت رجل يقضم تفاحة · كان هذا كل ما استطاع أن يتبينه اذ لم يكن سبق له قط أن رأى البيت بهذه الصورة، مليئا بالأنوار المشتعلة وبضوضاء الاصوات البشرية · ربما كان نفس المهندس قد شيد مسكنين متجاورين ثم أتى الزائرة عند دخوله الغابة ، فاتخذ الطريق الخاطىء· ولكى يتأكد، اقترب من النوافذ وكان الجليد الصلب يتفتت تحت نعليه كالبسكويت الجاف ·

***

وخرج ضابطان شابان يبدو عليهما بوضوح أثر الشراب ، خرجا مترنحين من الباب الرئيسى الذى كان قد ظل مفتوحا · وقال أحدهما :

ـ لقد خاننى رقم ١٩ ، هذا الرقم اللعين ·

ـ أما أنا فرقم صفر ، لقد ظللت مخلصا للصفر طيلة ساعة كاملة ، ولم يحدث مرة واحدة أن ···

أخرج الشاب الاول مسدسا من الجراب المدلى الى جانبه وشرع يهزه فى ضوء القمر · وقال :

ـ ان الشىء الوحيد الذى ينقص البرنامج هو حادث انتحار ، فبدون حادث انتحار سيظل الجو ناقصا ·

ـ خذ الحذر ·· ربما كان المسدس محشوا ·

ـ انه لكذلك · من هذا الرجل ؟

ـ لاأعرف ·· من المحتمل أنه البستانى ، لاتعبث كأبله بهذه الآلة .

ـ ان ما ينقصنا هو النبيذ الذى

وحاول أن يضع المسدس فى قرابه، ولكن المسدس انزلق ووقع فى الجليد، ثم سوى الرجل قرابه الفارغ بعناية عظيمة وقال : «قليلا من النبيذ الذى يثز قبل ان يتبدد الحلم » .

وعاد الضابطان الى المنزل سائرين فى خط يتلوى يمنة ويسرة ، وكان الشىء القاتم قد حفر لنفسه جيبا فى الجليد ·

اقترب المريض من النافذة ، ولو انه كان قد استدار فى الاتجاه السليم لكان قد اكتشف انها نافذة مكتب الهر بروفيسور ، لكن تولد لديه فى تلك اللحظة اعتقاد جازم انه بلغ فى الظلام منزلا غير الذى كان يريد ، فبدلا من الحجرة الصغيرة المربعة ذات المكتب والمكتبة الثقيلين والدواليب المصنوعة من الصلب ، رأى قاعة طويلة تضيئها فى قوة ثريات من البللور المصقول ، وقد زينت جدرانها بلوحات تشى بذوق مشبوه: نسوة صغيرات مرتديات أقمصة

نوم شفافة ، وقد انحنين فى اوضاع مائلة فوق مجارى مياه واخذن يخضن بين الزهور المائية ٠

وكان هناك جمع كبير من الرجال يلبسون الزى الرسمى أو ثياب السهرة يتدافعون حول ثلاث موائد روليت ، وكانت نداءات الموظفين تبلغ مسمعه مختنقة فى الظلام ! ضعوا رهانكم أيها السادة ، ضعوا رهانكم ، فى حين كانت فرقة موسيقية بعيدة تعزف فى الحديقة السوداء «الدانوب الازرق الجميل» كان المريض واقفا فى الجليد دون حراك ، وقد وضع وجهه لصق زجاج النافذة ، وأخذ يفكر فيما اذا كان قد أخطأ البيت ولكن كلا ، انه لم يخطىء البيت ، انه أخطأ البلد ٠ لقد كان يحس انه لن يستطيع العثور مرة أخرى على طريق العودة ٠٠ لقد كان بعيدا جداعن بلده٠

امام احدى الموائد كان يجلس العجوز الذى رآه فى السيارة المرسيدس بنز ، وكان يداعب باحدى يديه شاربه ٠ ٠ وبالاخرى صفا من «الفيشات»الموضوعة أمامه ، وكان يعدها ويعيد ترتيبها فى حين كانت الكرة تدور ثم تقفز لتستمر فى الدوران ، وكان يدق بقدمه متابعا نغم «الارملة الطروب» ٠ ومن البار انطلقت سدادة احدىزجاجات الشمبانيا وارتطمت بالثريا فى اللحظة التى صاح فيها الموظفون من جديد « ضعوا رهانكم أيها السادة » ٠

وفى تلك اللحظة رأى المريض الهر بروفيسور واقفا مستندا بظهره الى النافذة من الطرف الآخر من القاعة الضخمة خلف الثريا الاخرى، ونظر كل منهما للآخر طويلا وقد باعدت بينهما الضحكات والصيحات وبهرة الانوار ٠

ولم يميز الهـــربروفيسور المريض بوضوح ، اذ لم يكن يرى سوى خيال وجه ملتصقا بالجانب الخارجي للزجاج ولكن كان المريض يراه في وضوح تام على ضوء الثريا ، بل كان في استطاعته أن يرى ماارتسم على وجهه من تعبير ·· ذلك التعبير التائه الذى يصـــدر عن شخص دخل الى حفل غير الذى كان يريد رفع المريض يده كمـــا لو انه يريد أن يحيط الآخر علما انه ضل الطريق هو أيضـــا ، ولكن بالطبع لم يستطع الهر بروفيسور أن يرى اشارته فى الظلام · ورغم انهما كانا يعرفان بعضهما من قبل معرفة وثيقة ، الا انه كان مستحيلا تماما بالنسبة لهما (وكان المريض يدرك ذلك جيدا) أن يتلاقيا فى ذلك البيت الذى وصل اليه كل منهما حين ضل الطريق نتيجة حادثة غريبة · لم يكن فى ذلك البيت غـــرفة فحص ، ولا ملفات ، ولا مكتب ، ولا بروميثيوس ، بل ولا طبيب يقدم اليه استرحامه ، وصاح الموظفون «ضعوا رهانكم أيها السادة ··· ضعوا رهانكم ·

قال الهر كولونيل :

ـ ياعزيزى الهر بروفيسور ، لاتنس أنك ضيفنا ، وهكذا يجب عليـــك أن تراهن معنا ولو مرة واحدة ·

ثم أخذه من ذراعه واصـــطحبه حتى مائـــدة اللعب حيث كان يجلس الهر جنرال مصاحبا الايقاع واحد ، اثنين ، ثلاثة ، على أنغام «اليهار» ·

ـ ان الهر بروفيسور يود أن يجرب حظه معنا يا هر جنرال ·

فأجاب الجنرال : «ان حظى ضئيل هذا المساء ، تنضل ·· ورسم بأصابعه رسما على الجوخ·· الجا الى رقم الصفر» ·

دارت الكرة وقفزت ودارت ثم توقفت وصـــاح الموظف «صفر» وبدأ فى جمع النقود ·

وقال الهر جنرال : انك على الاقـــل لم تخسر ياهر بروفيسور ·

وبعيدا جدا ، وراء ضوضاء الاصوات سمع صوت انفجار ضعيف ·

وقال الهر كولونيل : « ان السعادات تنطلق ، أتريد كأسا أخرى من الشمبانيا ياهر جنرال ؟

فقال الهر جنرال بابتسامة باردة الى درجة كبيرة : لقد كنت أتمنى أن يكون ذلك طلقة رصاص ، آه الايام الجميـــلة التى ولت ·· انى أذكر ذات مساء فى مونت ·· ألقى الهـــربروفيسور نظرة نحو النافذة حيث اعتقد منذ لحظة «مضت انه كان هنا شخص ينظر الى داخل المنزل شخص ذو مظهر شائع مثله ، ولكن لم يكن هناك أحد ·